مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية
ISSN : 2353-0529 EISSN 2600- 643X
المجلد 9 / العدد: 04 (2021)، ص 114 - 143

مظاهر الكرم في مجتمع الصعاليك _كرم "عروة بن الورد" نموذجا_

Manifestations of generosity in tramp community _The generosity of urwa ibn al ward as a model_

ميلود فضة[1]

[1] **جامعة زيان عاشور الجلفة، Feddamiloud26@gmail.com**

تاريخ الاستلام: 2021/10/19 تاريخ القبول:2021/11/01 تاريخ النشر : 2021/12/21

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى تبيين صفة الكرم في المجتمع الجاهلي، وخاصة مجتمع الصعاليك، والإشارة إلى الصفات الأخرى، واختير كنموذج لذلك، شاعر صعلوك هو "عروة بن الورد"؛ لما قدّمه من تضحية، وشجاعة وإقدام، وإكرام الضيف، ومساعدة المظلومين والجوْعى والضعفاء، ورسمه لمنهج حياة؛ متمثلا في أخذه المال من الأغنياء وتوزيعه على الفقراء والمحتاجين، وهو لا يقصد الغنى في حدّ ذاته؛ وإنما ليحقّق هدفا إنسانيا ساميا؛ يتمثل إيجاد حلول لأولئك المنفيين والمقهورين والمستضعفين، ضاربا من البذل والعطاء والإيثار أروع الأمثلة التي بقيت خالدة، تحكيها أشعاره، وأخباره، إلى اليوم، ليستحقّ بذلك لقب الزعيم والقائد والسيّد.

كلمات مفتاحية: الكرم، مجتمع، الصعاليك، عروة بن الورد.

Abstract:

This study aimed to clarify the character of generosity in the pre-Islamic society, especially the tramp society, and to refer to other qualities, and urwa ibn al ward chosen a model for that. Represented by taking money from the rich and distributing it to the poor and the needy, and he does not intend to be rich in and of itself, but rather to achieve a lofty human goal, represented in

finding solutions for those who are exiled, oppressed and vulnerable, striking with giving, giving and altruism, the most wonderful examples that have remained immortal, told by his poems, and his news to this day, he deserves the title of leader, leader and master

Keywords: The vineyard, Community, tramps, Urwa Ibn Al Ward.

المؤلف المرسل: ميلود فضة

1_ مقدمة:

يدرس هذا المقال جانبا اجتماعيا مهما، وخصلة تميّزت بها العرب قديما، متتبّعا ذلك في مجتمع الصعاليك؛ إنها صفة الكرم، وما أدراك ما هي، وتندرج ضمن العادات والتقاليد، التي قُسّمت إلى عادات حسنة، وأخرى سيئة، وكان اهتمامي بصفة الكرم باعتباره عادة حسنة؛ لما لها من مكانة في المجتمع الجاهلي، وبالأخص مجتمع الصعاليك، بالإضافة إلى الصفات الأخرى؛ كنصرة المظلوم واللاجئ، والشجاعة والأنفة، والوفاء بالعهد، واحترام الجِوار، والصبر والتحمّل...، واخترت كنموذج لذلك "عروة بن الورد"؛ لتفرّده بخصلة الكرم، ولما عُرف عنه، من خلال شعره، من صفاة النجدة ومساعدة الفقراء والمحتاجين، وخروجه للسلب والنهب لا لشيء إلا للسبب المذكور، ولحصر الموضوع في تلك الزاوية؛ لكي يتناسب مع حجم المقال، ولمعرفة مظاهره ودوافعه.

ومن خلال ما قرأت حول هذا الموضوع، وما اطّلعت عليه من حياة عروة وشعره، تتبادر إلى الذهن بعض الأسئلة؛ لعل أبرزها: ما تعريف العادات والتقاليد وما هي أقسامها في العصر الجاهلي؟ وما هي أنواع كل قسم؟ وهل استمرت كلها أو أنواع منها إلى اليوم؟ وما مدى تأثيرها في المجتمع العربي عبر عصوره؟ وهل كان للإسلام دور في اختفاء بعضها وبروز أخرى؟ وما مكانة صفة الكرم بالمقارنة مع

الصفات الأخرى في الشعر الجاهلي وبالتالي مجتمع الصعاليك؟ وما هي مظاهره عند "عروة بن الورد" من خلال شعره؟.

وقد سرتُ بحذر شديد؛ كون أن الشعر الجاهلي صعب المراس، وما يكتنفه من غموض، حول جمعه، والشك في نسبة بعض أشعاره إلى أصحابها، واختلاف رواياته، وأخبار شعرائها، والأساطير التي قيلت حولهم، وعدم تطابقها مع الواقع أحيانا، وكذبها أحيانا أخرى من طرف الجُمّاع... ولكن رغم هذا، اتبعتُ منهجية واضحة؛ بدءا بلمحة موجزة عن العصر الجاهلي والصعاليك والمجتمع القبلي، ثم تعريف العادات والتقاليد، فتعريف صفة الكرم، وبعدها التطرق لمظاهر الكرم عند "عروة" من خلال شعره، ثم استنباط النتائج وتحليلها، وخاتمة البحث عبارة عن خلاصة له، وإشارة إلى أهم النتائج.

2_ لمحة عن العصر الجاهلي، القبيلة، الصعاليك:

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده. ولكن من يبحثون في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع، إذ يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية، وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصُها، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي... (ضيف، 1960، ص38).

إذا فالأدب الجاهلي ((هو أدب الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بنحو قرن ونصف قرن، وقد نشأ هذا الأدب في الجزيرة العربية، يستوحي صوره وأفكاره من بيئتها الطبيعية والاجتماعية، ويرسم لنا بشعره ونثره صورة واضحة لهذه البيئة، معبّرة عنها أصدق التعبير ...))(ابن الورد، 1998، ص23).

وينبغي أن نعرف أن كلمة "الجاهلية" التي أُطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى

السفه والغضب والنزق، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جلّ وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم. ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميَّة والطيش والغضب... وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرَّمه الدين الحنيف من موبقات(ضيف، 1960، ص39).

وكانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب...والعبيد، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة، والموالي، وهم عُتَقاؤها، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها، مثله مثل أبنائها(ضيف، 1960، ص67).

ومن هؤلاء الخُلعاء طائفة الصعاليك المشهورة.

أما عن سكان أهل الجزيرة، فقد سكنها العرب منذ عصور قديمة، وكان منهم تحضّر وأقام في المدن كأهل اليمن، ومنهم من عاش عيشة تنقل وترحال، وهم أهل البدو، وهم غالبية سكان الجزيرة وكانوا قبائل، وعرب الجزيرة ينحدرون من أصلين: تفرّعت منهما القبائل العربية: عرب الشمال(العدنانيون)، وعرب الجنوب(القحطانيون)، وكان بين عرب الشمال وعرب الجنوب صلات؛ فقد رحل بعض قبائل الشمال إلى الجنوب، ورحل كثير من اليمنيين إلى الشمال... وأهل الحضر وهم الذين كانوا يعيشون عيشة مستقرة، ويشتغلون بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة، كسكان اليمن، وإمارتي الحيرة والغساسنة، وبعض مدن الحجاز كمكة والطائف... وأهل البدو وهم سكان البادية، وهم أكثر سكان الجزيرة، وقد

كانوا يعيشون حياة غير مستقرة، يسيطر عليها الجوع والخوف وانعدام الأمن، ينتظرون مواسم المطر ومنابت الكلأ، ووسيلة عيشهم الغنم والإبل(ينظر: ابن الورد، 1998، ص25، 27).

أما جغرافيا، فبلاد العرب تقع في الجنوب الغربي من آسيا، وليست جزيرة بالمعنى الاصطلاحي لها؛ لأن الماء لا يحيط بها من جهتها الشمالية، ولكن القدماء تسامحوا فسموها جزيرة العرب، يحدّها الفرات وبادية الشام شمالا، والخليج العربي وعمان شرقا، والمحيط الهندي جنوبا، والبحر الأحمر غربا، وقد قسّمها جغرافيو العرب إلى خمسة أقسام: الحجاز(مكة، يثرب، الطائف...)، تهامة ونجد، واليمامة(تقع بين نجد واليمن)، واليمن(مأرب، صنعاء، نجران، وعدن...). وإلى جانب تلك الأقسام صحراء واسعة، تمتدّ من وسط الجزيرة، وتشمل أكبر جزء من أرض جزيرة العرب(ينظر: ابن الورد، 1998، ص23ن 24).

والصعلوك في اللغة الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، وبعدها دلّت على من يتجرّدون للغارات وقطع الطرق، ويمكن تمييز فيهم ثلاث طبقات: الخُلعاء الشذّاذ الذين خلعتهم قبائلهم، وأبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم، وثالثة لم تكن من الطبقتين السابقتين، غير أنها احترفت الصعلكة، وحينئذ قد تكون أفرادا مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هُذَيل وفَهْم(ينظر: ضيف، 1960، ص375)

والصعلكة ليست طارئة على الحياة الاجتماعية، وإنما ولدت بشكل طبيعي لتعبر عن التناقض الكامن في المجتمع العربي، وتنبئ عن تردي الواقع، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، إذ انقسم المجتمع على طبقات اجتماعية فضلا عن انقسامه على طبقتين اقتصاديتين؛ طبقة تملك الأموال وهي المسيطرة على مظاهر الحياة بكل أنواعها وأشكالها، وأخرى فقيرة معدمة تعيش على هامش الحياة، كما

أسهم البناء الاجتماعي في تعميق الفوارق الحادة في طبقات المجتمع مما دفع إلى ظهور الصعلكة بوضعها ظاهرة اجتماعية جديرة بالدرس والتأمل(لفتة، 2010، ص17).

ومن هؤلاء الخُلعاء طائفة الصعاليك المشهورة، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء، فيتخذون النّهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم، على نحو ما نعرف عن تأبّط شَرًّا والسُّلَيْك بن السلكة والشَّنْفَرى، على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد، وكان كريما فياضا، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عَبْس ومعوزيها ومرضاها، متخذا لهم حظائر يأوون فيها، قاسما بينه وبينهم مغانمه(الأصفهاني، 73/3، نقلا عن: ضيف، 1960، ص67).

وتتردّد في أشعار الصعاليك جميعا صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحّاء، ويمتزون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العَدْو حتى ليسمون بالعدّائين، وحتّى لتضرب الأمثال بهم في شدّة العدْو، فيقال: "أعدى من السُّلَيْك" و"أعدى من الشَّنْفَرَى"...(ضيف، 1960، ص375).

3_ العادات والتقاليد: تعريفها، أنواعها:

3. 1_ العادات والتقاليد لغة:

عرّفت العادات في عدة معاجم عربية على أنها نمط من السلوك أو التصرف المعتاد الذي يتم فعله مرارا وتكرارا من غير جهد، مثل عادة: التدخين وعادة الكذب... أما التقاليد فهي عادات وعقائد وأعمال وحضارة الإنسان المتوارثة التي يرثها الخلف عن السلف، ومفردها: تقليد،(https://mawdooa.com، 13أبريل 2020).

3. 2_ العادات والتقاليد اصطلاحا:

العادات هي أعراف يتوارثها الأجيال لتصبح جزءا من عقيدتهم، وتستمر ما دامت تتعلق بالمعتقدات على أنها موروث ثقافي، فهي تعبير عن معتقد معين، أما التقاليد فهي مجموعة من قواعد السلوك التي تنتج عن اتفاق مجموعة من الأشخاص وتستمد قوتها من المجتمع، وتدل على الأفعال الماضية القديمة الممتدة عبر الزمن، والحِكم المتراكمة التي مرّ بها المجتمع ويتناقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل، وهي عادات اجتماعية استمرت فترات طويلة حتى أصبحت تقليدا، ويتم اقتباسها من الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل، فهي بمثابة نظام داخلي لمجتمع معين(https://mawdooa.com ، 13 أبريل 2020).

3. 3_ أنواع العادات:

لكل مجتمع عبر العصور عاداته وتقاليده وأخلاقه التي تميزه عن بقية المجتمعات، كما له نظامه الذي يضمن تماسكه واستمراريته، بالإضافة إلى نمط تفكيره؛ مما يجعلنا نحكم على هذا المجتمع أو ذاك، بالقوة أو بالضعف، وعلى أنه قام ببناء حضارة من عدمها، وتلك العادات والتقاليد منها ما هو إيجابي، ومنها ما هو سلبي، وحسب ما وجدتُ وما قرأتُ؛ هناك عادات سيّئة وأخرى حسنة في المجتمع الجاهلي، ومنها ما تزال تعيش بيننا إلى اليوم. و((لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم، ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان، ويفضي به إلى الدهشة والعجب...))(المباركفوري، 2002، ص37).

وهناك من يسمّيها عادات وتقاليد إيجابية وتقاليد وقيم سلبية(ينظر: الشواورة، 2015، ص21).

3.3. 1_ العادات السيئة عند العرب في الجاهلية(ينظر في أنواعها وشرحها: https://midad.com، 2007/11/08، وانظر في بعضها: الشواورة، 2015، ص30 وما بعدها).

_ القمار أو الميسر: وهي عادة سكان المدن في الجزيرة؛ كمكة، والطائف، وصنعاء، ويثرب...،

_ شرب الخمر والاجتماع عليها، والمباهاة بتعتيقها..قال "طرفة بن العبد" في معلقته (قميحة، 2003، ص114).

وما زال تَشْرابي الخمورَ ولذّتي وبَيعي وإنفاقي طريفي ومُتْلَدي

إلى أن تحامتْني العشيرةُ كلها وأُفْرِدْتُ إفراد البعير المعبَّد

_ نكاح الاستبضاع: وهو أن تحيض امرأة الرجل منهم، فتطهر فيطلب لها أشراف الرجال وخيارهم نسبا وأدبا ليطؤوها من أجل أن تنجب ولدا يرث صفات الكمال التي يحملها أولئك الواطئون لها.

_ وأد البنات: وهي أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حية في التراب خوف العار.

_ قتل الأولاد: وذلك إما ذكورا أو إناثا؛ وذلك عند وجود فقر وحالة مجاعة، أو لمجرد توقع فقر شديد

_ تبرج النساء: وذلك بخروجهن كاشفات عن محاسنهن.

_ اتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال؛ وذلك بالاتصال بهم وتبادل الحب معهم في السرّ، وهم أجانب عنهن...

_ العصبية القبلية: وهي مبدأ عام: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، وقد ((عرفت القبيلة هذا الإيمان بالوحدة أمرا مقدسا، وترتبت عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة "دستور" ينظم سياستها، ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق)) (خليف، 1978، ص91).

و((الأساس الذي تقوم عليه نصوص هذا الدستور "العصبية"، والمقصود بها "النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، أو هي

إحساس الفرد برابطة القبلية، وواجب تأييد مصالحها، والعمل لها بكل ما يملك من قوة)) (خليف، 1978، ص91).

فجاء الإسلام فأمر بنصرة المسلم قريبا كان أو بعيدا.

_ شنّ الحروب والغارات على بعضهم البعض للسلب والنهب، فالقبيلة القوية تَغِير على الضعيفة، ومن أشهر تلك الحروب حرب "داحس والغبراء" التي وقعت بين قبيلتي: "عبس" من جهة، و"ذبيان" و"فزارة" من جهة أخرى، وحرب "البسوس" بين "بكر" و"تغلب"... ويمكن أن نضيف إلى هذه العادات:

_ الخَلْعُ: يحدث الخلع من القبيلة لأسباب كثيرة كأن((يقتل أحد أفراد القبيلة فردا منها،...أو يخلع هو نفسه فيفرّ من قبيلته نجاة بحياته...وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الخلقية...)) (خليف، 1978، ص93، 94).

وهناك من يسميه: النفي أو الطّرد.

_ عبادة الأوثان والشرك بالله.

_ الأخذ بالثأر.

3.3. 2_ العادات الحسنة عند العرب في الجاهلية (ينظر في أنواعها وشرحها: https://midad.com ، 2007/11/08، وانظر في بعضها كذلك: الشواورة، 2015، ص21 وما بعدها).

من العادات الحسنة عند العرب في الجاهلية:

_ الصدق: أي صدق الحديث.

_ قِرى الضيف: وهو إطعامه.

_ الوفاء بالعهود وعدم نكثها ومهما كلفت من ثمن.

_ احترام الجِوار وتقرير مبدأ الحماية لمن طلبها، أو ما يسمى بالاستجارة: فقد كانت العرب في الجاهلية تقبل المُجِير إذا طلب اللجوء، وتفتخر بذلك، و((وحين

نقف لنتأمل حياة هؤلاء المستجيرين نجد أننا أمام طائفتين: طائفة استقر بها المقام في القبيلة التي أجارتها، فاندمجت في مجتمعها...وطائفة أخرى لم تزل في نفوسها بقية تمرّد، رفضت هذا الفناء الجديد في شخصية القبيلة التي أجارتها...)) خليف، 1978، ص97، 98).

فها هو "لبيد بن ربيعة" يقول في هذا المجال مفتخرا (قميحة، 2003، ص204):

إن يفزعوا تلق المغافرَ عندهم والسنّ يلمع كالكواكب لامُها

((يفزعوا: يستغيثوا ويلجأوا. السنّ: الأسنة. اللام: الدرع)) (قميحة، 2003، ص204).

و((يقول "زهير":

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوالَ الرماح لا ضِعافٌ ولا عُزْلُ

فإن يُقْتلوا فيُشْتَفى بدمائهم وكانوا قديما من منایاهمُ القتلُ

الأعزل مفرد عزل: من لا سلاح له، وفزعوا: أغاثوا)) (ضيف، 1960، ص63).

((فجميعهم يطيرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم، وتدور رحى الحرب فيقتلون من أعدائهم ويشفون حقدهم، ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم)) (ضيف، 1960، ص63).

_ الصبر والتحمل، حتى قالوا: "تجوع الحرة ولا تأكل بثديها".

_ الشجاعة والنجدة والأنفة وعدم قبول الذل والمهانة، وهي خصال امتاز بها العرب نساء ورجالا، وفي أشعارهم وأقاصيصهم شواهد لذلك.

_ احترام الحرم والأشهر الحرم، ولو كانوا ذوي سوابق في الشر.

_ تحريمهم نكاح الأمهات والبنات.

_ اغتسالهم من الجنابة.

_ المداومة على المضمضة والاستنشاق.

_ السواك والاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط.

_ الختان الأطفال، والخفاف للبنات.

_ قطعهم يد السارق اليمنى.

_ الحج والعمرة.

ويمكن أن نضيف إلى ما ذُكِر من قبل، من الصفات الحسنة:

_ الحث على السعي وطلب الرزق، ولكن ليس بالإغارة والسلب والنهب، بل بأعمال مشروعة لا تضر بالآخرين؛ من مثل الفزع والخوف والقتل...، ولنا في القرآن الكريم ما يكفي في هذا الموضوع؛ فمثلا في قوله تعالى:﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا منْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة الجمعة/10)،

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل/97).

وقوله: ﴿والذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/82)،

وغيرها كثير، وفي أحاديث نبوية تحث على العمل وطلب الرزق، ليست مجال حديثنا ها هنا. ومن أمثلة الشعر في هذا الموضوع قول "عروة بن الورد" من قصيدة بعنوان: "دعيني للغنى" (ابن الورد، 1998، ص79):

دعيني للغنى أسعى، فإنـي ... رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيـرُ

وأبعدُهم وأهونُهم عليهـم ... وإن أمسى له حسبٌ وخِيرُ

ويقصيه الندى، وتزدريـه ... حليلتُه، وينهره الصغيـرُ

ويُلقى ذو الغِنى، وله جلالٌ، ... يكاد فؤاد صاحبه يطيـرُ

قليلٌ ذنبه، والذنب جـمٌ ... ولكن للغنى ربٌّ غفـورُ

ألا تلاحظ أن هذه الأبيات تعبّر عن واقعنا اليوم؛ تفضيل الغني على الفقير، وتقديمه في مآدب الطعام والجماعات، بينما الفقير مُؤَخَّر في جميع الحالات، حتى في إلقاء التحية، وما بالك بالحديث والسّمر معه...فـ((هكذا يسجّل أبو الصعاليك فلسفته في هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة، مشكلة الفقر والغنى، في هذا الأسلوب الممتاز الذي يستمد امتيازه من عنصرين أساسيين هما السخرية والبساطة: السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذي يحتقر الفقير لا لشيء إلا لأنه فقير، ويقدّر الغني لا لشيء إلا لأنه غني، والذي لا يهتم بغير المظاهر المادية، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء اهتمامه، ثم البساطة التي نلمسها في عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض السهل الذي لا يقبل معارضة، أو يثير جدلا، والذي ينفذ إلى النفس من أقرب السبل...)) خليف، 1978، ص328، 329)

وأستشهد بأبيات أُخَر له، في نفس المعنى السابق، في قصيدته بعنوان: "قالت تماضر" (ابن الورد، 1998، ص54):

قالت تُماضرُ، إذ رأت مالي خوى وجفا الأقاربُ، فالفؤادُ قريحُ
مالي رأيتُكَ في النّدى منكَّســاً وصباً، كأنّكَ في الندى نطيحُ؟
خاطرْ بنفسك كي تصيبَ غنيمةً إن القُعودَ مع العيالِ قبيــحُ
المالُ فيه مهابــةٌ وتجلــةٌ والفقرُ فيه مذلّةٌ وفضــوحُ

يخبرنا "عروة" أنه لما رأتْ "تماضر" ماله زال، وابتعد عنه الأقارب، قالت له لماذا أنت منكّس وقاعد كالنطيح، وقبحٌ قعودك مع العيال، والفقر، كما هو معلوم، فيه مذلّة وفضيحة، والمال فيه مهابة وتجلّة، والحل، في نظرها، هو خروجه والمخاطرة بنفسه من أجل نيل الغنائم؛ حتى يخرجا من هذا الوضع المزري. ((ويتضح من هذه الأبيات أثر المرأة المباشر في تمرد الجاهلي على واقعه،

فالمرأة تواجه هذا الزوج بتلك الحقيقة المرة...)) (ابن الورد، 1998، ص54 هامش).

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان "إذا المرء لم يطلب معاشا"، وفيها حثٌّ على السعي في الأرض، وترك الاتّكال، وطلب الحاجة أو الرزق يأتي بالسعي والتشمير والجد، وأرض الله واسعة وفيها من الرزق ما يكفي، وإذا مات الإنسان كادحا لطلب الرزق يكن له حمد وذكر بعد مماته (ابن الورد، 1998، ص77):

إذا المرءُ لم يطلبْ معاشاً لنفسه شكا الفقرَ، أو لام الصديق، فأكثرا
وصارَ على الأذنين كلاًّ وأوشكت صِلاتُ ذوي القربَى له أن تنكـــرا
وما طالبُ الحاجات من كل وجهةٍ من الناس، إلاّ من أجدَّ وشمّـــرا
فسر في بلاد الله، والتمس الغنى تَعِش ذا يسارٍ، أو تموت فتعــذرا

إن ((هذه المقطوعة تحمل في طيّاتها فلسفة عروة في الحياة، وضرورة السير في بلاد الله، خلق الله، من أجل الثراء والغنى، بدلا من شكوى الفقر، أو الطلب من الذين لا يثمر فيهم المعروف أو الخير)) (ابن الورد، 1998، 77 هامش).

((فإذا استعرضنا تلك العادات الحسنة والسيئة قبل الإسلام مع وضعنا الحالي؛ فإننا سنجد وللأسف الشديد أننا أهملنا وأضعنا العادات الحسنة، وثبتنا العادات السيئة، ولذلك فإن وضعنا كمسلمين وعرب يدعو للرثاء والازدراء، ولن يستقيم وضعنا إلا بالعودة إلى فطرتنا... تجمعنا الأعراف التي ورثناها بإنسانيتنا ونضيف عليها القوانين الإلاهية متمثلة في الشرع الحنيف الذي ابتعدنا عنه...)) (https://mohammedjabr.wordpress.com، 2015/11/19).

4_ تعريف الكرم:

لقد مرّ بنا سابقا، أن الكرم من الصفات الحسنة، وهو من ((أجلّ القيم الإنسانية التي رافقت الذّات العربية، وارتبطت بها، وشكّلت مع مجموعة قيم اجتماعية إيجابية أخرى، مثل الوفاء، والنجدة، والشجاعة، والصدق، والأمانة،

صورة متكاملة، وناصعة ميّزت الذات العربية الجاهلية، والمجتمع الجاهلي في آن معاً...)) (علي، 2013/12، ص211)

وإذا جئنا لنبحث عن معناه في المعاجم، ومن بينها "لسان العرب" لابن منظور: فـ((قد كَرُمَ الرجل وغيره، بالضم، كَرَمًا وكَرَامةً، فهو كَرِيمٌ وكَرِيمَةٌ وكِرْمَةٌ ومَكْرَمٌ ومَكْرَمَةٌ وكُرَامٌ وكُرَّامٌ وكُرَّامَةٌ، وجمع الكُرَّام كُرَّامون، وكِرَامٌ، وجمع الكُرَّام كُرَّامون...)) (ابن منظور، د. ت، ص3861).

وفي اللسان أيضا: ((الكريم: من صفات الله وأسمائه، وهو الكثير الخبير، الجواد المعطي الذي لا ينفدُ عطاؤُه، وهو الكريم المطلق)) (ابن منظور، د. ت، ص3861).

أما هذه الصفة عند البشر فـ((الكريم: الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل...)) (ابن منظور، د. ت، 3861).

ومعنى هذا أن فالكرم لا يقتصر على البذل والعطاء فقط؛ وإنما يتعدّى ذلك إلى كلّ أنواع الخير والأنفة والشرف وحميد الخصال والفضائل والصفات... ويعرّفه "ابن سِيدَه" بأنه نقيض اللّؤم فيقول: ((نقيض اللُّؤم يكون في الرجل بنفسه، وإن لم يكن له آباءٌ، ويُستعمل في الخيل والإبل والشجر وغيرها من الجواهر...)) (ابن منظور، د. ت، 3861).

لذلك ((فمن اجتمعت فيه خصال اللُّؤم تلك، أو إحداها، صَعُبَ أن يكون الكرم إحدى سجاياه، لأن الكرم يتطلّب عزة في النفس، وجرأة وصبرا على المكاره، والأهم من ذلك، رغبة في البذل والعطاء، وحبًّا للآخرين ونبذا للأثرة والجشع)) (علي، 2013/12، ص212).

ومن معانيه كذلك الصّفح؛ فـ((الكريم: الصّفُوح)) (ابن منظور، د. ت، 3861).

وكذلك الترفّع والابتعاد عن كلّ ما يسيء للمرء من الصفات التي القبيحة والمشينة والتي فيها لؤم، فقد ورد في اللسان: ((أَكْرَمَ الرّجلَ وكرَّمَه: أَعْطَمَهُ ونَزَّهَهُ))، و((تكَرَّمَ عن الشيء وتكارَمَ: تَنَزَّه. اللّيثُ: تكرَّم فلان عمّا يُشينه إذا تنزَّه، وأكرم نفسهُ عن الشائنات)) (ابن منظور، د. ت، ص3861، 3862).

ومن معانيه المعروفة أنه بمعنى بذل الجهد للترحيب بالضيف وإطعامه، وتلبية حاجات السائلين والمحتاجين بالمال أو الطعام، أو ما من شأنه أن يفيد في خدمة الآخرين. وتزداد قيمة وأهمية الكرم أكثر عند حدوث مكروه أو أزمات ومشاكل، ونقص في الغذاء أو غيره، أو حروب...، ففي هذه الحالة تُقاسُ درجة الكريم ومدى كرمه وصدقه، ودليل على تكافل هذا المجتمع أو ذاك من عدمه.

وإذا تحدّثنا عن الكرم في الجاهلية، وعند الصعاليك بالخصوص، فالمسألة تأخذ طابعا خاصا؛ لما للبيئة الصحراوية من صعوبة في المعيشة، وشساعة أرضها، وندرةٍ في الكلأ والماء، واتّساع المسافة من منطقة لأخرى؛ ممّا يؤدّي إلى صعوبة في التنقل بينها، وبالتالي احتياجٌ إلى الطعام والشّراب أثناء هذه الرحلة أو تلك، ضف إلى ما تفعله الحروب والغارات من سطو ونهب وسلب؛ ممّا يسبّب فقرا وعوزا وحاجة لدى المسلوبين...، كلّ ذلك جعل من خصلة الكرم أن تكون ضرورية وحتمية في المجتمع الجاهلي، وتصبح ملازمة للإنسان الجاهلي، فالمسألة أعمق من هذا؛ إنها حياة أو موت، بقاء أو فناء، لمواجهة قساوة تلك البيئة، وخَلْق نوعا من التكافل الاجتماعي متمثلا في عادة الكرم، وما صاحبها من العادات الحسنة الأخرى.

5_ مظاهر الكرم في شعر "عروة بن الورد":

5. 1_ ترجمة موجزة لعروة بن الورد:

هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هُرَّيم بن لُديم بن عوذ بن غالب بن قطيْعة بن عبس (الأصفهاني، 73/3، نقلا عن: خليف، 1978، ص322).

ولد سنة 555م بشبه الجزيرة العربية (ويكيبيديا).

فهو من قبيلة معروفة كما ترى، هي "عبس". وكان "عروة بن الورد" يسمّى: عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه(ابن منظور، د.ت، صعلك). وكان كريم الخلق عفيفا صادقا وفيا بالعهود (فروخ، 1981، 212/1).

ومن أشرف الصعاليك، يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه، وصعلكته عن حاجة وفقر (الفاخوري، 1986، ص173).

وُضِع "عروة" منذ نشأته الأولى بين شِقَي الرّحى، فأبوه تتشاءم منه قبيلته، وأمه من قبيلة أقل شرفا (خليف، 1978، ص323).

وسبب تشاؤم قبيلته من أبيه هو أنه أوقع الحرب بينها وبين "فزَارة" بمراهنته حذيفة (الأصفهاني، 88/3، نقلا عن: خليف، ص322).

وتذكر المصادر أن أباه كان يفضّل أخاه الأكبر عليه ((ومعنى هذا أن عروة تفتّحت عيناه في الحياة على صورة مختلفة التوازن من صورها: صورة الأخ الأكبر الذي يؤثره أبوه مع غناء عنه، وإلى جانبها صورة الأخ الأصغر الذي يهمله أبوه مع ضعفه وحاجته إليه، أليست هذه الصورة هي التي شاهدها "عروة" بعد ذلك في المجتمع الذي يعيش فيه في مجال أوسع: الأغنياء الذين تؤثرهم الحياة مع غناهم، وإلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شيء مع شدة حاجتهم

وضعفهم؟ وهكذا بدأت براعم فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية في الظهور في هذه السن المبكرة)) (خليف، 1978، ص323).

كان "عروة بن الورد" فارسا من فرسان الجاهلية المعدودين، كما عرفه الأصفهاني صاحب الأغاني في حديثه عنه، وصعلوكا من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد، ولقب بعروة الصعاليك... (ابن الورد، 1998، ص10).

إن إنسانية عروة وجوده تتمثل أفضل تمثيل في طريقة حياته ومعاملته للصعاليك، الذين كثيرا ما كانوا يتدللون عليه، فيتحملهم لئلا يفسد صنيعه معهم، ويصبر عليهم أعظم الصبر، ويكظم غيظه، ويعفو عنهم أعظم العفو (ابن الورد، 1998، ص10).

توفي مقتولا في إحدى تلك الغارات التي كان يقوم بها لإحضار الطعام للفقراء، وكان هذا قبل الإسلام بـ26 عاما في سنة 594م، وبعض المصادر قالت 607م (جودة، https://www.qssas.com، 2018/06/03).

أو: 15ق.هـ/607م (موقع ويكيبيديا).

5. 2_ مظاهر الكرم في شعر "عروة بن الورد":

من عادة شعراء الجاهلية الافتخار بقبائلهم وما تمتاز به من صفات الشجاعة والكرم ونصرة المظلوم وحسن الجوار، والتغني ببطولاتها...الخ، وما يقدموه من يد العون لأفرادها. وتكملة لما ذكرناه في العنوان الثاني من هذا المقال عن العادات الحسنة؛ نحاول هنا، الحديث عن خصلة "الكرم"، ونتتبّعها عند شاعر مقتدر من الشعراء الصعاليك؛ هو "عروة بن الورد"، من خلال شعره، ونحاول استقراء شعره في هذا المجال؛ لاستنباط الأسباب التي أدت به إلى الخروج عن ذلك النظام السائد في القبيلة، رغم تمسكه بقبيلته، لتكون صفة الكرم هي الغالبة عليه، بالإضافة إلى مساعدة المحتاجين والمساكين والجوعى، وسلوكه مسلك الإغارة على الأغنياء ثم توزيع ما سُلب عليهم.

وكانوا يتبارون في الكرم ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم، بين ممتدح به ومثن على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع، وليس عنده من المال التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم، فيقوم إليها، ويذبحها لضيفه، ومن آثار كرمهم أنهم يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات (المباركفوري، 2002، ص37).

ومما جاء في شعرهم في هذا الباب قول "عنترة بن شدّاد العبسي" في معلقته المشهورة (الشنقيطي، 2002، ص110):

فإذا شربتُ فإنني مُستهلكٌ مالي، وعرْضي وافرٌ لم يُكلم

وإذا صحَوتُ فما أقصّر عن ندًى وكما علمتِ شمائِلي وتكرُّمي

فحتى وأثناء شرب الخمر يفتخر بالجود والكرم في صرف ماله، ولكن ((لا لأنها مفخرة في حدّ ذاتها، بل لأنها سبيل من سبل الكرم...)) (المباركفوري،2002، ص37).

وعبارة "فإذا شربت فإنني مستهلك مالي" دلالة على كرمه، ومن جهة أخرى، هذا الأمر لا يمسّ من عرضه شيء؛ ف ((وافر: كامل، أي إنني استهلك مالي إن سكرت ولكن عرضي يبقى مصونا. والندى: الجود. شمائلي: مزاياي)) (قميحة، 2003، ص282

إنه يُذَكّرُ حبيبته وابنة عمه "عبلة" بنت "مالك" بخصاله ويفتخر بذلك.

والافتخار يقول "لبيد بن ربيعة" مفتخرا بقبيلته في معلقته (قميحة، 2003، ص203):

فضلا وذو كرمٍ يعين على الندى سمحٌ كسوب رغائب غنّامها

ويقول كذلك من نفس المعلقة، وأرمل القوم: إذا نفذ زادهم:

وهمُ ربيعٌ للمجاور فيهمُ والمرملاتِ إذا تطاول عامُها

وكان "عروة بن الورد" يسطّر في شعره أروع القيم، فيظهر في شعره روح التضحية في سبيل إسعاد الفقراء والمظلومين حيث يقول:

إنّي امرؤٌ عَافِي إنائي شِرْكَــةٌ وأنت امرؤ عافي إنائِك واحـــــدُ

أتهزأُ منّي أنْ سمنتَ وأن ترى بجسميَ شحوبَ الحقّ، والحقُّ جاهدُ

أُقسِّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأَحْسُو قَراحَ الماءِ، والماءُ بــاردُ

(جودة، https://qssas.com، 2018/06/03).

وعروة يعبّر عن معنى إنساني رفيع، إذ تعرَّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنًى هزيل شاحب اللون، فقال له: إنني يشكرني كثيرون من العفاة والسائلين ذوي الحاجة في إنائي أو طعامي، أما أنت فلا يشكرك أحد، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامرا نحيلا، وما شحوب وجهي إلا أثر من آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين، فلست أنا الخليق بالهزء والسخرية، إنما الخليق بذلك السمين والبَطِين. وما لبث أن قال: إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء، أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم، بل كثيرا ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفيا بشرب الماء البارد، على حين يعصف الشتاء بزمهريره. والذي لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل في البِرّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء (ضيف، 1960، ص384).

إن طبيعة النفس البشرية تختلف باختلاف نمط التفكير، ودرجة الوعي، والإيمان بالفكرة، وإن((وجود المذهبين في المجتمع؛ الكرم والبخل، يحيل إلى اختلاف الأفراد، وتمايزهم فيما يتعلّق بنظرتهم، وفهمهم للحياة والوجود، ودور المال فيهما، فالكريم يهتم لوجود الآخر أولا، لأنه يرى أن وجوده لا يتحقق بغير الآخر، في حين يهتمُّ البخيل لأمر وجوده فقط، ولا يكترث لأمر أحد سواه)) (علي، 2013/12، ص243).

ويتحدث "عروة" عن مساعدته للفقراء والمحتاجين والضعفاء، وأن فراشه وبيته لهم، في بيتين من ديوانه، بعنوان: "فراش الضعيف"، فيقول (ابن الورد، 1998، ص83):

فراشي فراشُ الضعيف والبيت بيتُه ولم يلهني عنه غزالٌ مقنــعُ

أحدثه، إنّ الحديثَ من القـــرى وتعلمُ نفسي أنه سوف يهجعُ

ولا يكتفي "عروة" بهذا؛ بل إن ((هذا الدور الذي يؤدَّى لا يمنعه عنه أي مانع أو أي شاغل فلا ينشغل بامرأة حسناء مثلا. والغزال المقنع: المرأة اللابسة القناع، أو ما تغطي به شعرها. والقرى: أي الكرم وتقديم واجب الضيافة على الوجه الأكمل للضيف. والحديث الذي يطمئن ويريح نوع من الكرم. ويهجع: ينام ويستريح بعد أن آمنه وأطعمه من الجوع والخوف...)) (ابن الورد، 1998، ص83 هامش).

وتزداد هذه الصفة وتكبر وتكثر في المجتمع البدوي الجاهلي فـ((كان إكرام الضيف من أبرز القيم التي أوصى بها البدو أبناءهم...ومن رَحِم المعاناة في تلك الصحراء الواسعة وُلِدتْ هذه القيم الإنسانية، وهذا الخلق النبيل، ليكون مظهرا من مظاهر التعاون على ظروف حياة البدو القاسية، ومن ثمَّ فهم معرّضون في أثناء رحلاتهم الدائبة في مجال الصحراء إلى أن ينْفَد ما معهم من زاد...)) (الشواورة، 2015، ص22).

فهذا "عروة" يقول مفتخرا بفرحته بالضيف وبكرمه قائلا (ابن الورد، 1998، ص78):

سَلِي الطَّارِقَ المُعْتَرَّ يا أُمَّ مَالِكٍ إذا ما أتَانِي بَينَ قَدْرِي وَمَجْزَرِي

فَيُسْفِرُ وَجْهِي إنّه أوّلُ القِرَى وأَبْذُلُ معْرُوفِي له دُونَ مُنْكِرِي

((يوجه كلامه إلى أم مالك، وقد تكون زوجته، أو أي امرأة أخرى تلومه على جوده وكثرة عطائه. _ الطارق: اسم فاعل من طرق، والطارق الذي يطرق على

الباب ليلا، _ والمعترّ: الذي يأتي للمعروف من غير أن يسأل. _ مجزري: مكان الجزر أو المسلخ الذي تسلخ فيه الإبل أو الماشية. _ يسفر: أي يشرق، والمنكر: هو القبح أو العمل الرديء، ومضاده المعروف)) (ابن الورد، 1998، ص78 هامش).

و((إن هذه الصورة التي رسمها "عروة" تبين ملامح الصعلوك حال قدوم الضيف إليه، فنجد "عروة" أظهر تلك الصورة التي تعبّر عن البشاشة والفرح والسرور؛ ليظهر ترحيبا ظاهرا على وجهه حين يطرق بابه ضيف، ونلحظ هنا إن الكرم كان مشتركا بين "عروة" وزوجته، فهي تشارك في إكرام الضيف...)) (الشواورة، 2015، ص23).

ويقول "عروة" في قصيدة أخرى بعنوان "الثراء والفعال" (ابن الورد، 1998، ص57):

ما بالثّراء يسود كلّ مُسوَّدٍ مثرٍ، ولكن بالفعال يسودُ
بل لا أكاثرُ صاحبي في يسره وأصدُّ إذ في عيشه تصريدُ
فإذا غنيتُ، فإن جاري نيلُهُ من نائلي، وميسري معهودُ

في مناسبة الأبيات أن "عروة بن الورد" بلغه عن رجل "بني كنانة" أنه ما أبخل الناس وأكثرهم مالا، فبثّ عليه عيونا، فأتوه بخبره، فشدّ على إبله، فاستاقها ثم قسمها في قومه (ابن الورد، 1998، ص57 هامش).

ينتبه "عروة" إلى فكرة في مجتمعه الجاهلي، هي أنه ليس بالغنى يكون الإنسان سيّدا، ولكن السّيادة، في نظره، بالأخلاق، وأنه لا يكاثر في يسر صاحبه، ولا يصدُّ عنه إذا ما أصابه فقرٌ، وإذا اغتنم أو أصاب مالا، يعطي ممّا غنمه لجاره أو لصاحبه. وهنا لا ينبغي أن ننكر ما للمال من فرض السيادة والرئاسة في المجتمع ((فيكون الهدف الأساس من بذل المال، والجود به، هو إعلاء شأن الذات الفردية للكريم في الحضر والمستقبل، على أن هذا كلّه، لا يلغي، ولا يقلّل من شأن الدافع الإنساني والرغبة الفردية الذّاتية في ممارسة الجاهلي لفعل الكرم، وانتهاج

طريقه، حبًّا بفعل الخير، وتعاطفا مع الآخر، وعلى أساس القيمة النفعية للجود بالمال، كان الكرم سالكا وموصلا إلى السيادة والرئاسة؛ فأغلب من عُرفوا بكرمهم وجودهم في الجاهلية ،كانوا سادة في أقوامهم، من أمثال: حاتم الطائي، وعروة بن الورد(زعيم الصعاليك)، وهرم بن سنان...)) (علي، 2013/12، ص227).

ومن قوله في قصيدة بعنوان "وفي الرحل آية" (ابن الورد، 1998، ص71):

هم عيّروني أن أمّي غريبةٌ وهل في كريم ماجدٍ ما يعيَّر؟

وقد عيَّروني المالَ حين جمعته وقد عيّروني الفقر إذ أنا مُقْتِر

يلوم قومَه بأنْ عيَّروه بأمّه، وبجمعه المال، وحين فقره، و((في هذه الأبيات وبالذات الأخيرة منها يتّضح أن عروة عاش في قبيلته حياة كلها هموم ومعاناة، وكلها جفاء وازدراء، إن رفضه كان بسبب رفض هؤلاء الناس له، فلقد عيّروه بأمّه الغريبة، كما عيّروه به لأنه جاء مهبا وسلبا)) (ابن الورد، 1998، ص71 هامش).

ولكنه يردّ عليهم بأن الكرم صفة تغلب كل سلبية فيه؛ فالرجل الكريم يطغى كرمه وعطاؤه، حتى لا تكاد ترى فيه كلّ دنِية، أمّا عن جمعه المال، فكان ردّه عمَليا _ يظهر ذلك جليا من خلال شعره، وما يروى عنه من بطولات في مساعدة الفقراء والمحتاجين _ بأنه حين يفعل ذلك يحلّ مشكلة اجتماعية كبيرة(الغنى/الفقر)؛ يأخذ من الأغنياء ليعطي للفقراء والضعفاء والمساكين والضيوف. فوقف موقف المحتار المتعجّب من مجتمعه؛ إذا كان غنيا لاموه وعيّروه، وإن كان فقيرا احتقروه وأهملوه. وفي موضع آخر من ديوانه ردّ على الذين عيّروه بأمّه ردّا قويّا، فقال (ابن الورد، 1998، ص85):

أعيّرتموني أن أُمّي تريعَةٌ؛ وهل ينجبن في القوم غير الترائِع؟

وما طالِبُ الأوتارِ إلا ابنُ حُرة، طويلُ نجاد السيفِ، عارى الأشاجعِ

والتريعة: المسرعة إلى الشر. وطويل نجاد السيف: كناية عن الشجاعة والإقدام، والأشاجع هم الأقوياء الأبطال (ابن الورد، 1998، ص85 هامش).

وفي ضلّ هذا التناقض المجتمعي، يعطي "عروة" تفسيرا له؛ بأن هذا هو حال الناس، عبر العصور(تفضيل الغني على الفقير)، بدليل فعل المضارع(تزدريه، ينهره، يقصيه)، وثبات تلك الصفات الحسنة للغني والصفات السيّئة للفقير؛ معبّرا عن ذلك بالجمل الاسمية التي تفيد الثّبات والاستقرار(قليل ذنبه، له جلال، فؤاد صاحبه يطير...) في أبيات مرّت بنا سابقا (ابن الورد، 1998، ص79):

دعيني للغنى أسعى، فإنـي رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيـرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهـم وإن أمسى له حسبٌ وخِيرُ
ويقصيه الندى، وتزدريـه حليلتُه، وينهره الصغيـرُ
ويُلقى ذو الغِنى، وله جلالٌ، يكاد فؤاد صاحبه يطيـرُ
قليلٌ ذنبه، والذنب جـمٌ ولكن للغنى ربٌّ غفـورُ

وفي قصيدته "دعيني أطوّف" مثال للتضحية بنفسه ما أجل الآخر(المحتاج، الجائع، الخائف...)، فلا تمنعه المرأة(زوجته)، ولا الخوف، ولا الموت من تحقيق رغبته(تحقيق العدالة الاجتماعية)؛ وذلك بجمع المال بشتى الطّرق، لا لشيء إلا لملأ أفواه الجَوْعى ومساعدة المساكين والضعفاء الذين ينتظرونه بفارغ الصبر؛ فهو أبوهم وزعيمهم وسندهم على نوائب الدهر والشدائد (ابن الورد، 1998، ص97):

دعيني أُطَوِّفُ بالبلاد، لعلّني أُفِيدُ غِنًى، فيه لِذِي الحقّ مَحْمَلُ
أَلَيْسَ عظيماً أنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ وليس علينا، في الحقوق مُعوَّلُ
فإن نحنُ لم نَمْلِكْ دفاعًا بِحادِثٍ تُلِمُّ به الأيامُ، فالموتُ أحملُ

ويفيد الفعل(دعيني) أن الوضع أصبح لا يُطاق في قبيلته أو في ناحيته، ولم يعجبه حال أصحابه وما ينزل بهم من نقص المال والمأكل والملبس، ويخاف عليهم انقلاب الأحوال، وإمساك الأغنياء.

وهناك حقيقة كامنة وراء بحث "عروة" عن المال لتحقيق الغنى هي((ليكون وسيلته للارتفاع بمنزلته الاجتماعية بين أفراد مجتمعه، من حيث إنه يهيّئ له

الفرصة التي يشارك فيها السادة الأغنياء في البذل والكرم واكتساب المحامد والمفاخر:)) (خليف، 1978، ص328).

وينبغي أن نشير إلى أمر التفت له "شوقي ضيف" _ ممّا نقله من كتاب "الأغاني"_ في "عروة" هو أنه كان((بذلك كله يعبّر عن نفس كبيرة، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشَّنْفَرى وتأبَّطَ شَرًّا، وإنما يغزو ليعين الهُلَّاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته، والطريف أنه لم يكن يُغير على كريم يبذل ماله للناس، بل كان يتخيّر لغارته من عُرفوا بالشّحّ والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم، فلا يرعون ضعفا ولا قرابة ولا حقًّا من حقوق أقوامهم (ضيف، 1960، ص383، 384).

6_ خاتمة:

وختاما، نصل، من خلال هاته الرّحلة الشيّقة، التي أخذتنا في رحاب شاعر من شعراء الصعاليك، هو "عروة بن الورد"، إلى استنتاج وتلخيص ما ورد في هذه المقالة، على النحو التالي:

يكاد يكون اتفاق على أن العصر الجاهلي يمتدّ من البعثة النبوية إلى حوالي قرن ونصف قبلها، وهو العصر السابق للإسلام مباشرة، عُرف عنه وثنية وأخذ بالثأر وتناحر وعدم استقرار...، وهي فترة أنتجت لنا الشعر الجاهلي. وكانت القبيلة في هذا العصر تتكون من ثلاث طبقات: أبناؤها، والعبيد، والموالي(عُتَقاؤها، ويدخل فيهم الخُلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها). وقد سكن العرب الجزيرة العربية من القدم، ومنهم مَن تحضّر، ومنهم مَن سكن البادية، وكانوا قبائل. وأولئك العرب ينحدرون من أصلين: عرب الشمال(العدنانيون)، وعرب الجنوب(القحطانيون)، وكان بينهما صلاتٌ، وأكثر سكان الجزيرة هم البدو، وكانوا يعيشون حياة غير مستقرة يسيطر عليها الخوف والجوع وانعدام الأمن، ينتظرون مواسم المطر ونبات الكلأ.

ميلود فضة

لقد انتشرت في المجتمع الجاهلي عادات وتقاليد، منها ما هو حسن ومنها ما هو سيّء، وعندما جاء الإسلام أبقى على الحسنة منها وثمّنها ودافع عنها، ورفض العادات السيّئة ونبذها؛ لأنها تتناقض مع الفطرة الإنسانية، وتُلْحق بالإنسان الضّررَ، وتفكّك نسيجه الاجتماعيّ، ومن تلك العادات والقيم، عادة الكرم، وفي تعريفها رُبطت بأنها نقيض اللّؤم، لأن الكرم يتطلّب عزة في النفس، وجرأة وصبرا ورغبة في العطاء والبذل والإيثار، لكن من اتّصف باللؤم صَعُبَ عليه أن يكون كريما.

ولا يقتصر الكرم على قِرى الضيف وإطعامه فقط؛ بل يتعدى ذلك ليشمل كلّ أنواع الخير والشرف والفضائل والصّفح والابتعاد عن كلّ قبيح ومشين. ولم يكن اتّصاف الصعلوك بالكرم بمحض الصدفة؛ ولكن الواقع الاجتماعي، والبيئة الصحراوية، وأرضها الواسعة، وندرة الكلأ والماء، ونشوب غارات وحروب...كلّ ذلك وغيره، جعل من خصلة الكرم أن تكون ضرورية وحتمية في المجتمع الجاهلي؛ لمواجهة أيّ خطر، أو جوع...فالمسألة حياة أو موت. والمعروف عن الصعلوك أنه الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ثم دلّت على مَن يمتهنون الغارات وقطع الطرق، والصعاليك طبقات: الخُلعاء الشذّاذ، وأبناء الحبشيات، وطبقة ثالثة خلاف الطبقتين الأوليين، ولكنها احترفت الصعلكة.

إن فلسفة "عروة" الاجتماعية والاقتصادية نابعة من قناعة شخصية، ارتسمت معالمها في ذهنه منذ صغره؛ ممّا لاحظه من تفضيل أبيه لأخيه الأكبر عليه، والتناقض الموجود في المجتمع؛ ونظرته للغني والفقير، وتعييره بأمه، ثم لومهم له على جمع المال، وحين يكون فقيرا...، إنها عوامل جعلته يخرج عن صمته ويطوف البلاد للبحث عن المال وافتكاكه من الأغنياء البخلاء؛ ليوزّعه على المحتاجين والفقراء والضعفاء، ويضرب بقيود القبيلة ونظامها عرض الحائط.

و"عروة بن الورد" حين يُغِير باحثا عن المال، هو لا يهدف إلى الغنى في حدّ ذاته؛ وإنما ليساعد المحتاجين المنتظرين بفارغ الصبر عند بابه، وهذا ما مكّنه من أن ينال صفة "زعيم الصعاليك". وما يُحْسبُ لعروة أنه في خرَجاته لا يُغِير على الذين اشتهروا بالبذل والعطاء من الأغنياء، ولكن على الممسكين والبخلاء الذين لا همَّ لهم إلا أنفسهم.

إن الكرم في نظر "عروة"، لا يكفي وحده، بل لا بدّ أن يتّصف الكريم بالأخلاق، كما أن السِّيادة في القوم لا تكون بالمال وحده. وإن ترحيبه الشديد بالضيف وفرحه به، وإعطائه كلّ ما يملك؛ دلالة على تفوقه على أصحابه، وبين مجتمعه بصفة الكرم.

لقد سطّر "عروة" أروع القيم؛ من تضحية بكلّ ما يملك من أجل إسعاد الآخر(الفقراء، المحتاجين، المظلومين...)، وإيثاره على نفسه، بل إن حياته للآخر، وللضيف، والدليل أن فراشه للضعيف، ولا تلهيه عن ذلك حتى المرأة الحسناء، ولا يبخل عنه بالحديث والسّمر معه؛ لأن في ذلك من قِرى الضيف حسبه.

وردّه على الذين عيّروه بأمّه كان ردّا قويا من خلال شعره، وهذا يُحيلنا إلى أمر؛ وهو أنه ليست العبرة في التباهي بأصالة النَّسَب والجاه والمال، وهذا ليس قانونا لإنجاب أولاد أقوياء وصالحين اجتماعيا، ولكن العبرة هنا بالمواقف، وما يقدمه المرء من تضحية في سبيل إسعاد الآخرين والمحتاجين والضعفاء، وما يبذله في قرى الضيف وملء أفواه الجوعى...وشعور الشاعر الصعلوك بالتهميش والإقصاء والنفي من القبيلة، جعله يجد متنفسا في مجتمعه الجديد/مجتمع الصعاليك، يتشارك معهم ويساعدهم ويتواصل معهم، وبالتالي يحسّ بأداء دوره جديد.

لقد لعب "عروة بن الورد" دورا مهما في تحقيق العدالة الاجتماعية، وخلْق نوع من التوازن، ونهوضه ضد الأغنياء من أجل مساعدة الفقراء، وحثّه على طلب

الرزق، والشجاعة والصبر...، ولكن الطريق والوسيلة التي سار بها وأصحابه الصعاليك، خلقت فجوة وشرخا واضطرابا وفزعا في المجتمع _ بالإضافة إلى الأخطار التي تحدق بالجاهلي به من كلّ جانب؛ من جوع ونقص كلأ وماء..._ بسبب تلك الغارات والسطو والنهب والسلب والسَّبْي وقطع الطريق...، وإن جئنا لنبحث عن تبرير لذلك؛ لقلنا إن الواقع الاجتماعي المتناقض هو الذي أدى بعروة وأصحابه أن يسلكوا هذا المسلك.

وأخيرا، إنّ صفة الكرم منبتها عربي أصيل، وضُرِبت لها أروع الأمثلة من التراث العربي، توارثها العرب جيلا عن جيل، وشاعرنا "عروة بن الورد" واحد منهم، وتمثّلت فيه أحسن تمثيل، من خلال ما سمعنا عنه، وما قرأنا من شعره، ممّا يجعلنا نحن العرب نفتخر بذلك، ويدفعنا هذا لمراجعة أنفسنا، ونطمح للعودة إلى تلك القيم العربية الأصيلة التي غابت عن مجتمعنا، وبقينا نتغنّى بها في المناسبات، وجلّ شعرائنا وأدبائنا اليوم، يقولون ما لا يفعلون.

إن "عروة" نموذج فريد من نوعه بين الصعاليك، في إنقاذ الإنسان من الهلاك، ومواجهة أيّ تهديد، أو خطر محيط به، ومحاولة تغيير نمط الحياة لما هو أفضل، وخلق توازن اجتماعيّ، يقوم على مساعدة الضعفاء والمحتاجين، وإيواء اللاجئين وإكرام الضيوف.

لقد عبّر الشعراء الصعاليك عن حياتهم أصدق تعبير، وصوّروها كما هي من غير زيف؛ تحدّثوا عن الفقر، عن الجوع، عن الظلم، عن شحّ وبخل الأغنياء، حَكَوا مغامراتهم وتنقلاتهم، قلد قاموا بثورة عارمة ضدّ واقع اجتماعيّ متناقض، محاولين تغييره؛ من أجل حياة أفضل، قوامها الأخذ من أجل العطاء، كما رأينا عند "عروة".

ثم إن ظاهرة الصعلكة هذه، تعطينا صورة واضحة على أن المجتمع الجاهلي كان منقسما إلى طبقتين: طبقة غنية مهيمنة مسيطرة، وأخرى فقيرة

مُعدمة، ومن الطبيعي أن تنهض هذه الأخيرة لتطالب بحقوقها، وترسم لحياتها نهجا خاصا بها.

7_ قائمة المصادر والمراجع:

_ القرآن الكريم، رواية ورش.

1_ الكتب العربية:

_ خليف، يوسف، (1978)، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، (ط3)، دار المعارف، القاهرة.

_ الشنقيطي، أحمد بن الأمين، (2002)، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان.

_ ضيف، شوقي، (1960)، تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة.

_ الفاخوري، حنا، (1986)، تاريخ الأدب العربي، (ط1)، دار الجيل، بيروت. لبنان.

_ فروخ، عمر، (1981)، تاريخ الأدب العربي، (ط4)، دار العلم للملايين، بيروت.

_ قميحة، مفيد، (2003)، شرح المعلقات العشر، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

_ لفتة، ضياء غني، (2010)، البنية السردية في شعر الصعاليك، (ط1)، دار حامد للنشر والتوزيع.

_ المباركفوري، صفي الرحمن، (2002)، الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار المعرفة، الدار البيضاء، المغرب.

_ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (د.ت). لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

_ ابن الورد، عروة، (1998)، ديوانه، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان.

2_ البحوث والرسائل الجامعية:

_ الشواورة، أحمد اسبيتان، (2015)، مظاهر البداوة وصورها في الشعر الجاهلي، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة مؤتة، الأردن.

_ علي، رباح، (2013/2012)، البحث عن الذات في الشعر الجاهلي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة تشرين، سوريا.

3_ المواقع الإلكترونية:

، تاريخ الدخول: 2021/07/17، الساعة:14:40. https://mawdooa.com_ 13 أبريل 2020م،

_ 08 نوفمبر 2007م، https://midad.com، تاريخ الدخول: 2021/07/17م، الساعة: 14:57.

_ رباب جودة، 2018/06/03م(قصة الشاعر عروة بن الورد أمير الصعاليك، على الرابط: https://www.qssas.com ، تاريخ الاطلاع: 2020/12/08م، الساعة:18:38).

_ محمد جبر، 2015/11/19م(عادات العرب في الجاهلية والحفاظ عليها، https://mohammedjabr.wordpress.com ، تاريخ الدخول:2021/07/17، الساعة:15:48).

_ https//ar.m.wikipedia.org، تاريخ الاطلاع: 2020/12/08م، الساعة:19:19.